

العنوان:	مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي تحدي واستجابة
المصدر:	مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
الناشر:	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المؤلف الرئيسي:	سامعي، إسماعيل
المجلد/العدد:	ع13
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2003
الشهر:	فيفري
الصفحات:	148 - 127
رقم MD:	643596
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الخوارج
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/643596

مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي

تحدي واستجابة

الأستاذ إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر

توطئة:

من الظواهر التي صاحبت انتقال سكان بلاد المغرب إلى حظيرة الإسلام ظهور مدعو النبوة خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، الذين قاموا بوضع تشريعات حاولوا بها مضاهاة التشريعات الإسلامية، ومحاكاة القرآن الكريم. فما طبيعة هذا الادعاء، وما أهدافه؟ ومن هم هؤلاء الذين تجرأوا على تحمل وزر مثل هذا الادعاء؟ وما هي منطلقاتهم الفكرية والاجتماعية؟ وما هي الظروف التي ساعدتهم على الظهور؟ وكيف كانت الاستجابة لهم؟ وهل يدخل هذا الادعاء في سياق مقاومة المغاربة التاريخية لكل دخيل، أم هو ثورة على التعسف والظلم والإقصاء؟

لقد تحدثت جل المصادر لا سيما المغربية عن هؤلاء المتنبئين ببلاد المغرب، غير أن معظمها تنقل عن مصدر واحد هو البكري (ت ٤٨٧/١٠٩٤) الذي نقلها عن رواية أبي صالح زمور بن موسى رواها حين جاء في وفد مبعوثا إلى الحكم المستنصر بقرطبة سنة ٣٥٢/٩٦٣¹ لذلك فإن المصادر تشتبك في تقديم صورة واحدة عن هؤلاء المدعين، الذين تصفهم بالكفر والكذب والافتراء وتعددهم مرتدين، وهو نفس ما قالت عن زعماء المقاومة البربرية مثل ميسرة، واليسع، وابن واسول، أما المستشرقون والكتاب الغربيون فقد صنّفوهم ضمن حركات الرفض والثورة الشرعية. فالبحث في أسباب وأهداف هذه

1- الاسم الكامل هو أبو موسى بن هشام بن واردة بن رسول أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله ابن أبي غيير بن محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف صاحب برغواطة، انظر، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (بغداد)، مكتبة المثنى، ١٣٤.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

الحركات من شأنه إزاحة الغبار عن معالم أخرى في تاريخنا، ويقرب تصورنا للوقائع التاريخية كما هي لا كما صورتها المصادر الأحادية الطرح.

* الظروف والأسباب:

إن الظروف التي سهلت ظهور مدعو النبوة ببلاد المغرب أو البدع كما يسميها المؤرخون كانت في مقدمتها تلك التحولات الكبرى التي شهدتها المغرب منذ عهد الفتح العربي الإسلامي في نهاية القرن ١هـ/٩ م حيث كان لا بد للتغيرات التي أدخلها الإسلام أن تصطدم بما هو كان قائما من تعاليم، وعقائد، وشرائع، وتقاليد، لاسيما وأن تعاليم الشريعة الإسلامية شكلت ثقلا على الربر في مرحلة التحول كما يقول البكري¹ وهو طبيعي فكل جديد يصطدم بالقديم، ويكون الصدام أخف إذا كان الجديد بديلا يرتكز على الحق، والعدل، والعلم، ويمكن حصر الظروف والأسباب في الأتي:

أولا — الظروف والأسباب السياسية: لقد كان القرن السابع الميلادي بالنسبة للسلطة الأجنبية البيزنطية قرن تراجع كبير حيث لم يبق لها شأن يذكر إلا في بعض الحواضر في شرق بلاد المغرب، وقد أدى هذا الوضع إلى قيام كيانات مستقلة أساسها القبيلة، وهو ما سوف تقوم عليه الدول ببلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي مثل دولة تاهرت التي أساسها زناتة، والدولة الفاطمية التي قامت على أكتاف قبيلة كتامة، ودولة الزيريين على أساس قبيلة صنهاجة.

إن الطابع الاستقلالي للقبيلة، والزعامة المتجذرة فيها، وروح المقاومة، وسلوك بعض الولاة وتعسفهم في أوائل الفتح أدت إلى عدد من ردود الأفعال منها الردة عن الإسلام، والتمرد والقيام بثورات، والمقاومة السياسية والفكرية من أبرزها إدعاء النبوة.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

ويدلو لي أن هناك دافعين أساسيين، وهما انتشار الفكر الإسلامي الخارجي التحوري بين القبائل البربرية الجبلية التي تعرف برفضها للهيمنة، والخضوع للنظام المركزي، وفشل الثورات مثل ثورة ميسرة المدغري سنة ١٢٢/٧٣٩.

ثانياً — بقايا تعاليم الديانات السابقة: من المعروف أن الديانات التي كانت سائدة قبل الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب هي اليهودية والنصرانية بالإضافة إلى الوثنية ذات التقاليد الواسعة والمتجذرة، وكانت الديانتان اليهودية والنصرانية قد كيفت من قبل سكان بلاد المغرب الذين قاموا بالمحاولة نفسها مع تعاليم الشريعة الإسلامية بعد اعتناقها بحكم عاملين: الطبيعة البشرية، وموروثهم الحضاري.

ثالثاً — طبيعة السكان: تبعاً لطبيعة سكان بلاد المغرب التي تشجع على التحرر من قيود النظم والعقائد لاسيما في نطاق القبيلة مدعومة بالظروف الطبيعية، فإنهم أرادوا على ما يبدو مضاهاة هذه الديانات بابتداع تعاليم ديانة خاصة بهم يكون مقامها بالنسبة للإسلام كمقام الإسلام بالنسبة لليهودية والنصرانية¹، إنه مبتغى شجع المبتدعين ممن كان لهم طموح في الزعامة إدعاء النبوة، وابتداع دين خاص يستجيب لطبائع وطموحات السكان يحاكون به تعاليم الإسلام .

رابعاً — استقلال شريعة الإسلام وتكاليدها: يبدو أن ثقل شرائع الإسلام كما يذكر البكري² كانت سببا في نفور بعض القبائل، وعدد من السكان من بعض تعاليمه وليس منه لاسيما ما يخص الأموال كالزكاة، والجزية التي أبقاها عليهم بعض الولاة رغم اعتناقهم الإسلام، وفرائض الصلاة والصوم والحج وما يترتب عنها من جهد، وامتناع عن الشهوات.

خامسا — دعوة الخوارج: انتقلت دعوة الخوارج الصفرية والإباضية، وتمكنت من سكان أرياف وبوادي بلاد المغرب، والتي تنسجم تعاليمها خاصة السياسة مع ميول

1- روني باسيت René Basset، برغواطة، دائرة المعارف الإسلامية — معربة —، (طبعة بيروت. د. ت)، دار المعرفة، ٢/٥٥ .

2- البكري، المغرب، ٩١ .

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

هؤلاء السكان إلى الحرية، ورفض قيود النظام الذي تفرضه سلطة مركزية لاسيما أن الخوارج جاءوا بفكرة حرية اختيار الأمة للحاكم حتى ولو كان عبدا أسودا، وعزله¹ إذا انحرف أو بغى، فكانت هذه الأفكار دافعا قويا لركوب موجات التمرد والردة، ومحاولة ادعاء النبوة، ومن أقوى ردود الأفعال التي كان للفكر الخارجي الدور الأساسي فيها ثورة ميسرة المدغري في الركن الغربي من بلاد المغرب، كما كانوا من وراء الثورات التي اشتعلت نارها في جهات مختلفة من بلاد المغرب².

سادسا — استبداد بعض الولاة والحكام: تخبرنا المصادر عن استبداد بعض الولاة، وعدم اهتمام الخلفاء الأمويين بهذا الأمر، من ذلك موقف عقبة بن نافع من كسيلة زعيم البربر بل وإزاء أبي المهاجر دينار الوالي المعزول نفسه رغم ما أسداه من نصح فيما يخص معاملة سيد البربر كسيلة، وقد ذهب عقبة بن نافع ضحية سياسته المتسمة بالشدة والعنف³، كما أن هذه السياسة كادت تقضي على الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية في عهد المهدي الفاطمي (٢٩٦ — ٣٢٢ / ٩٠٨ — ٩٣٣) وخليفته القائم والمنصور (٣٢٢ — ٣٤١ / ٩٣٣ — ٩٥٢)، لاسيما موقف المهدي من كتامة التي تحملت أعباء نجاح الدعوة

1- الشهرستاني، الملل والنحل، (بيروت ١٤٠٠ / ١٩٨٠)، دار المعرفة، ١/١١٦.

2- ابن عذاري المراكشي، البيان، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ط، ٣، بيروت). ١٩٨٣، دار الثقافة ١/١٥٦، ٢٠٦، ابن، خلدون عبد الرحمن، العبر، (بيروت ١٩٦٨)، دار الكتاب اللبناني ٤/ ٧٠، ابن الخطيب لسان الدين، كتاب أعمال الأعمال، القسم الثالث، تحقيق، إ. ليفي بروفنسال، (بيروت ١٩٥٦)، دار المكشوف، ١٣٨ وما بعدها، السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، (الدار البيضاء، ١٩٥٤)، دار الكتاب، ١/١٢٥ وما بعدها، الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمالي الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، (بيروت، ١٩٨١)، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠ وما بعدها؛ وأيضا بعض الرسائل الجامعية والبحوث والدراسات وبعض المراجع الأخرى أذكر منها بالفرنسية على سبيل المثال لا الحصر،

E.F. GAUTIER. les siècles obscurs maghreb. (paris. 1927), payot. p. 292.

3- يمكن الرجوع إلى العديد من المصادر في سياسة عقبة بن نافع أذكر منها: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، (القاهرة ١٤٢٢/١٩٩١)، مكتبة مدبولي، ١٠٨؛ ابن عذاري، البيان، ١/٣٨.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

وقيام الدولة، وقتله للداعية أبي عبد الله الذي يعتبر زعيمها الروحي، وبعض رجالها¹، مما كان له ردود أفعال سلبية لكنها لا تخرج عن الإسلام في جملتها.

سابعا — الهياج الديني: عرفت القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية هيجانا دينيا وفكريا بالموازاة مع التغيرات السياسية حيث قامت حكومات ببلاد المغرب على أساس قبلي حكامها من المشرق مثل الرستميين والأدارسة²، في حين تمكنت المذاهب الفقهية والفرق الإسلامية³ منه بانتشارها بين السكان وتوغلها في البوادي والأرياف، وصحب ذلك حركة علمية وفكرية تجلت في ظهور عدد من العلماء والمفكرين، وقيامهم بتصانيف ضاهوا بها علماء المشرق الإسلامي، وهو ما أعطى فرصة لمدعي النبوة من إبراز تفوقهم ونبوغهم في فهم الشريعة، وتأويل أحكامها لتتوافق وطباع مجتمعاتهم القبلي.

* نبوة برغواطة: برغواطة بطن من بطون قبيلة مصمودة، ومصمودة من أكثر قبائل البربر وأوفرهم، وموطن برغواطة بالمغرب الأقصى في سهول تامسنا، وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأسفي، وكان زعيمهم لأول المائة الثانية ميسرة المدعري أو المطغري المعروف بالحقيير أو الحفير القائم بدعوة الصفرية⁴.

* متنبؤ برغواطة:

١ — طريف أبو صالح: عاش في القرن الثاني الهجري⁵، مصمودي الأصل من زناتة، وهو من قواد ميسرة وبقي طريف قائما بأمر قبيلته بتامسنا، فتنبأ وشرع لها الشرائع⁶،

1- يستحسن الرجوع إلى المصادر والمراجع المختلفة في شأن مقتل الداعية أبي عبد الله أذكر منها: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، (الجزائر وتونس، ١٩٨٦)، الشركة التونسية للتوزيع، وديوان المطبوعات الجامعية، ٣٠٦ وما بعدها، لقبال موسى، دور كتامة، (الجزائر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص، ٣٢٧ وما بعدها.

2- ابن عذاري، البيان المغرب، ١/١٩٦، ٢١٠؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢٣،

3- يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى رسالتي للماجستير بعنوان: " دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي من القون ٢ — ٥ هـ / ٨ — ١١ م " لاسيما الفصل الأول.

4- الفرد بل، المرجع السابق، ١٧٣.

5- لقد اعتمدت في ضبط تواريخ هؤلاء المتنبيين على رواية ابن عذاري، والتصحيح من ابن خلدون، وتجدد الإشارة إلى أن ثمة اختلاف واضح في هذه التواريخ بين المصادر والمراجع مثل أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب.

6- ابن خلدون، العبر، ٦/٢٢٨.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

والذي عاد من المشرق بعد أن حمله الخوارج إلى هناك، ولما هلك طريقا ترك أربعة أولاد منهم صالح، ويبدو أن القول بأن طريقا ظهر لأول الهجرة أو أول الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب الهدف منه تجذير هذه الديانة وتأصيلها لمضاهاة دين الإسلام.

٢ — صالح بن منصور بن طريف المعروف بالعبد الصالح، وصالح المؤمنين¹ (١٢٧) —

١٧٤ / ٧٤٤ — ٧٩٠)، وقيل عن صالح أنه كان إسرائيليا، وهو على ما يبدو رأي خصومه الذين زعموا أن أبيه الحقيقي شمعون بن يعقوب ابن إسحاق²، نشأ بقرية برباط، ولعله وادى بكة جنوب غرب الأندلس حيث كان قد انتصر طارق بن زياد بالقرب من شريش xères من أعمال الأندلس، ومن ثم جاء لقب "برباطي" الذي هو تحريف لبرغواطي، وأطلق على أتباعه، وقد فند ابن خلدون هذه الآراء التي أوردها صاحب كتاب "نظم الجواهر"³.

وقيل أن ظهوره كان في المائة الأولى للهجرة وهو غير صحيح حسب رأي ابن خلدون، ومثل والده رحل هو الآخر إلى المشرق حيث درس على يد عبيد القدري المعتزلي، واشتغل بالسحر — لعله التنجيم — فمهر فيه، كما كان عالما زاهدا ورعا حسب عدد من المصادر مما ساعده بعد عودته إلى بلاده على استمالة الناس إليه حتى ولو عليهم⁴، والمعروف أن هذه الصفات تتطابق تماما مع طبيعة سكان بلاد المغرب الذين يتميز الكثير منهم لا سيما الريفيون والبدويون بالسذاجة وطيبة النفس والخلق، والاعتقاد

1- قد يكون هذا الاسم "صالح المؤمنين" لقبا لكل متتبع من أفراد هذه العائلة ؟

2- يبدو أن هذا من أقوال الخصوم المتأخرين حيث يظهر في قولهم نظرية التبيين الروحاني، وهي نظرية فلسفية لم تعرفها بلاد المغرب إلا في عهد الدعوة الإسماعيلية الفاطمية، وخصوصا عند ظهور المهدي بشكل محدود جدا.

3- روني باس René Basset برغواطة، ١٩٥١/٣.

4- ابن عذارى، البيان، ١/ ٢٢٥، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٢/٢.

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

في أمثال هؤلاء¹ إلى درجة أن آمنوا بأنهم وسطاء الله يجلبون لهم الخير، كما يجلبون لهم الشر لذلك فإن طاعتهم وخدمتهم لهؤلاء المدعين كانت من أوكد الواجبات.

وقد شارك صالح في ثورة وحروب ميسرة المدغري أو الحفيري القائم بدعوة الصفرية، وقيل أن ميسرة استوزره ثم عزله لكن أوصى به أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر ووصفه لهم بأنه صاحب فضل وعلم² ثم خلف والده طريفا سنة ١٢٧ / ٧٤٤ في خلافة الوليد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٧ / ٧٤٣ — ٧٤٤)³، وبعد أن هلك ميسرة قام بوضع ديانة لبرغواطة، وادعى أنه صالح المؤمنين المذكور في القرآن الكريم "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"⁴ وأنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، ثم عهد إلى ابنه الياس بديانته، ويبدو أن هذه الديانة بدأت صياغتها في عهد والده طريفا، وتبلورت معالمها على يده، وطبقها خلفاؤه، واقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتقليدا لسيرته، ولسيرة حياة بعض الرسل مثل عيسى عليهم السلام، فقد آثر أن يحتفي ويترك مواصلة دعوته لمن يخلفه من أبنائه وأحفاده، وكأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وخروج إلى المشرق، وادعى أنه سوف يعود في دولة السابع، ويعود معه عيسى عليه السلام، ويكون صاحبه ويصلي خلفه، وتسمى بأسماء عديدة مثل صالح في العرب، ومالك في السريان، وعالم في الأعجمي، ورويا في العبراني، وربما في البربر⁵، وقصة خروجه هذه يبدو أنها إما من وضع خلفائه لتقوية دعوتهم، وتعميق الإيمان بها، وإما من وضع الرواة والقصاص أو

1- هذه الصفات، وهذا الاعتقاد ظل قائما حتى عصرنا، وكما استقبلت في هذا الوقت النحل والملل خاصة نخلة الخوارج الصفرية ومال السكان نحو زعماء انخرقوا عن المنهج الإسلامي حسبما تغير به المصادر.

2- لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ٣ / ١٨٢ .

3- تقول بعض المصادر أن صالحا خلف والده في عهد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ / ٧٢٤ — ٧٤٣)، وهو غير صحيح بالنظر إلى إجماع أغلب المصادر على خلافة صالح سنة ١٢٧ / ٧٤٤، وهو ما يوافق نهاية خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وبداية خلافة مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ / ٧٤٤ — ٧٤٩) آخر خلفاء بني أمية، انظر المصادر السابقة الذكر .

4- سورة التحريم، ١٠٤ .

5- ابن خلدون، العبر، ٤٢٩/٦ .

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

الإخباريين حسبما أفاد به البكري، والراجح أن صالحا مات وأغلب الظن أنه مات مقتولا أثناء المعارك التي كانت متواصلة في تلك المناطق، و تقول رواية البكري¹ أنه مات بتماسنا — تامسامان — ودفن بقرية أفطي على شاطئ البحر وقبره بها يعرف إلى أيامه أي أيام البكري.

وقد اعتمد صالح السرية والاستناد إلى الأمويين بالأندلس لضمان نجاح واستمرار دعوته، وكان ذلك فرصة للأمويين لأجل إضعاف النفوذ العباسي في المنطقة الغربية الاستراتيجية بالنسبة إليهم، كما تبنا عقيدة المهدي المنتظر الذي سيخرج آخر الزمان لقتال الدجال، وأنه سيملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، والعقيدة نفسها استخدمت في بلاد المغرب أكثر من مرة منها أثناء الدعوة الإسماعيلية الفاطمية، والدعوة الموحدية وهي العقيدة التي تجذب إليها الطبقات المستضعفة والسذج والعوام من الناس، وتتلاءم مع طبيعة سكان بلاد المغرب التي يغلب عليها الطابع الريفي والبدوي، ويسودها نظام القبيلة المغلق؛ كما يبدو أن صالحا كان يعتقد بالحلول والرجعة، وبالسبعية، والفكرة الأخيرة بلورتها الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة لاسيما وأن صالحا كان يستخدم علم التنجيم والكهانة في نشر دعوته² حيث كانت هذه المرحلة مرحلة تكوين العقائد والفرق والمذاهب الإسلامية التي تنوعت مشاربها، وتعدد تأثرها بعقائد وديانات الأمم السابقة عن الإسلام، وبذلك فإن سكان بلاد المغرب كانوا يبحثون عن طرق جديدة وفعالة للإسهام في العطاء الحضاري الجديد العربي الإسلامي.

٣ — الياس بن صالح بن طريف (١٧٤ — ٢٢٤/٧٤٤ — ٨٣٨)، كان مثل والده طاهرا غافيا كما يقول ابن خلدون³ الذي أوصى بأمر الدعوة وقيادة برغواطة له، ويبدو أن الديانة حتى عهده لم تنتشر خارج قبيلته برغواطة، لذلك واصل الياس إظهار إسلامه وكنمان ديانته طيلة حياته في القيادة والدعوة، والتي دامت حسب المصادر حوالي خمس

1- المغرب، ٩٢.

2- ابن عذاري، البيان، ٢٢٥/١، ابن خلدون، العبر، ٤٢٩/٦.

3- العبر، ٤٣٠/٦.

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

وخمسين سنة، ولم يظهرها إلا لمن وثق به من خاصته، وقد استجاب لدعوته عدد كبير من قبيلة زناتة وغيرها¹.

٤ - يونس بن إلياس بن صالح بن طريف (٢٢٤ - ٢٦٨ / ٨٣٨ - ٨٨١)، رحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج حيث لم يحج قبله أحد من أبائه ولا بعده من أبنائه، وقد مات بعد حكم دام أربعاً وأربعين سنة، وهو الذي يقول عنه ابن خلدون: أنه أظهر دين أبائه وحمل الناس على اعتناقه، وقاتل من لم يؤمن به أو يدخل في دعوته حتى قيل أنه أحرق بنواحي تامسنا حوالي ٣٨٠ مدينة، وقتل ٧٧٠٠ نفساً بموضع تاملوكاف²، ومن الصعب تصديق هذه الرواية فإنه في عهد هذا الأمير إما أن يكون قد بعث تعاليم صالح بعد أن أهملت وإما أن يكون يونس هو صاحب هذه التعاليم بالفعل، وإن كان قد نسبها إلى جده³، وفي عهده انتقل الملك إلى ابن عمه أبو غفير، وكانت عاصمة ملكه مدينة شالة⁴ challa.

٥ - أبو غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف (٢٦٨ - ٢٩٧ / ٨٨١ - ٩٠٩): يبدو أنه أخذ ملك برغواطة بالقوة من بني عمه كما أظهر ديانة برغواطة المبتدعة، وخاض حروباً طاحنة مع الأدارسة، وعن حياته الخاصة. يزعم المؤرخون أن له أربعاً وأربعين زوجة، ومن الولد مثله، وقد مات في أواخر المائة الثالثة للهجرة بعد حكم دام تقريباً تسعاً وعشرين سنة، وقد أشار إلى حروبه سعيد بن هشام المصمودي في شعر له قال فيه⁵:

قفي قبل التفرق واخبرينا وقولي واخبري خبرا يقينا
وهدى أمة هلكوا وشلوا وغاروا لا سقوا ماء معينا

1- لسان الدين بن الخطيب، أعما الأعلام ق ٤ / ١٨٤ .

2- العير، ٤٣٠/٦ ، عند ابن عذاري ٨٠٠ موضع أو مدينة، ونحو ٧٧٠٠ ، انظر، البيان، ٢٢٤/١ .

3- RENE BASSET , recherches sur religion de berbères, paris, 1910, p. 48- 91.

4- يبدو أنها مدينة سالة وهي مدينة قديمة أثرية بضواحي مدينة الرباط اليوم (حي المطار)، ويفصلها عن مدينة سالا وادي ابن الرقاق.

5- ابن خلدون، العير، ٤٣١/٦ .

يقولون: النبي أبو غفير فأخزى الله أم الكاذبين
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم رينا
رنين الباقيات فبين ثكلى وعادمة ومسقطه جنينا
سيعلم أهل تامستا إذا ما أتوا يوم القيامة مهطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه يقودن الرابر حائرنا
إذا زر ياور طافت عليهم جبهتهم بأيدي المنكرينا
فليس اليوم يومكم ولكن ليالي كنتم متيسرينا

٦ — أبو (حمص) الأنصاري عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف (٢٩٧ — ٣٤٩ / ٩٠٩ — ٩٦٠)، كان كثير الدعة مهابا عند ملوك عصره الذين هادونه ودافعوه بالمواسلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل، ولا يلبس المخيط، ولا يعتم، ولا يعتم أحدا في بلده إلا الغرباء^١، وكان حافظا للحجار، وفيا بالعهد، وكان ينتظر عوة جده الشيخ صالح النبي^٢، وبعد حكم دام أربعاً وأربعين سنة تقريبا مات ودفن بامسلاخت وبها قبره^٣.

٧ — أبو منصور عيسى بن أبي الانصاري عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف (لا تعرف تواريخه): ولي حكم بلده برغواطة وهو ابن اثنان وعشرون سنة فسار بسيرة آبائه، وادعى النبوة والكهانة، وكان شديدا خضعت له قبائل المغرب، وهو بعد أبي منصور سابع الأمراء من أهل بيت طريف والذي كان موعودا أن يرجع في عهده صالح بن طريف، خاصة وأن والده كان قد أكد له قبل وفاته بأنه سلبع الأمراء وأن صالحا سيأته^٤، ويعد عهد عيسى هذا عهد انقراض ملكهم في برغواطة^٥

1- يبدو أن العتمة هنا تعني صلاة العشاء ؟

2- لسان الخطيب، أعمال الأعلام، قسم ٣، ص، ١٨٦.

3- ابن خلدون، العبر، ٤٣١/٦.

4- نفسه، ٤٢٣/٦.

5- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ١٨٦.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي
على يد المرابطين حيث دخل البرغواطيون الإسلام بصورة نهائية، وتخلّى آل طريف عن
إدعاء النبوة .

شريعة برغواطة

لقد وضع مدعو برغواطة تشريعات دينية أدعوا أنهم أوحى بها إليهم، والواقع أنها لا
تتعدى أن تكون تحريفا لتعاليم شريعة الإسلام، وما جاء به القرآن والسنة النبوية
الشريفة، وهي مزيج من التقاليد القديمة الموروثة، وإن كانت المصادر ترجع تشريعات
هذه الديانة — البدعة أو الفتنة — إلى صالح بن طريف غير أنه يظهر أن المدعين السبعة
اشتركوا في وضعها، ويؤكد هذا البكري¹، حسب رواية زمور.

ويلاحظ في الرواية تحامل واضح خاصة أن صاحبها لم يكن من قبيلة برغواطة بل
كان يقيم بينها، وتجدر الإشارة إلى أن هذه التشريعات وضعت باللغة البربرية ثم نقلت
إلى اللغة العربية نقلها مسلم بن شلة ويدعى أبا موسى بن عيسى بن داود²، أما عن
الجانب العقائدي في هذه الديانة الشعائرية الطقوسية، فلا تقدم لنا المصادر إلا معلومات
قليلة جدا³، كما أتى هؤلاء المتنبئين بقرآن حاكوا به القرآن الكريم.

قرأتهم "الموضوع": نقل البكري رواية وضع هذا القرآن عن زمور قال: "وقرأهم
الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لادن
آدم أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس، وفيها سور فرعون، وقارون، وهامان،
وياجوج وماجوج، والدجال، والعجل، وهاروت وماروت، وطالوت، وغرود — وهذه
تشبه سور القصص القرآني —، وسور الديك، والحجل، والجراد، والجمل، والحنش
وكان يمشي على ثمانية أرجل، وفيها سورة غرائب الدنيا، وهناك العلم العظيم عندهم"،
وقد ذكر بعض الكلمات المترجمة من أول سورة أيوب وهي استفتاح كتابهم: "بسم الله
الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس هو الذي بين لهم به أخباره قالوا علم إبليس القضية

1- المغرب، ١٣٨.

2- نفسه، ١٣٤، دائرة المعارف الإسلامية، ٥٥١/٣.

3- الفرد بل، الفرق، ١٩٤.

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

أبى الله ليس يطيف إبليس كما يعلم الله سل أي شيء يغلب الألسن في الأفولة ليس يغلب الألسن في الأفولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق أنظر محمدا. وعبرة ذلك بلسانهم: "إمحي مامت فما مت محمد" أي كان حين علش استقام الناس كلهم الذين صحبوه حتى مات ففسد الناس كذب من يقول: أن الحق يستقيم وليس ثم رسول" وهي سورة طويلة¹

وما يلاحظ على هذا القرآن الموضوع المبتدع هو أنه القرآن الكريم نفسه محرفا ومشوها، فأسماء سورة تقريبا واردة في القرآن الكريم، والاختلاف هو أنه وضع باللسان البربري، وأن سورة ثمانون سورة عوض مائة وأربع عشرة سورة في القرآن العظيم، هذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فإن عدم وصول نصوص هذا القرآن يجد من إمكانية التقويم والحكم، وباعتماد هذا النص الذي سمح البكري بوصوله إلينا فإنه لا يتعدى إعادة تركيب وترتيب لما جاء في القرآن الكريم من أخبار وأحكام، انطلاقا من بسم الله الرحمن الرحيم.

ويبين هذا النص أو واضع القرآن أنه لا ينكر نبوة محمد ﷺ، ولا الوحي فهو يتحدث عن النبي محمد ﷺ: "كان حين عاش استقام كلهم الذين صحبوه حتى مات ففسد الناس، فمن يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله ﷺ" ويريد القول أنه لا بد للناس من نبي حي ليستقيموا بدليل أنه عندما مات محمد ﷺ فسد الناس، وهذا لا يبرر ادعاؤه النبوة، ويؤكد للناس ضرورة وجود النبي والوحي ليستقيم الناس، ووجود خلفاء له يواصلون رسالة، ويسهرون على تنفيذ تعاليم شريعته.

تعاليم الشريعة المبتدعة: سأقدم فيما يأتي تشريعاتهم كما أوردتها المصادر لاسيما البكري مع تبويي لها وتعليقي عليها.

أ — في العبادات:

١ — الوضوء: من واجبات الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة، وغسل الوجه، ومسح العنق والقفا، وغسل الذراعين إلى الميكبين، ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك، ثم غسل الرجلين من الركبتين، وأن الاغتسال من الجنابة لا يكون إلا من حرام¹.

٢ — الصلاة: شرع لهم خمس صلوات في النهار ومثلها في الليل؛ وبعض صلواتهم إماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجادات متصلة، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: ابسمن ياكش؛ وتفسيره بسم الله، مقرر ياكوش، وتفسيره الكبير الله ويضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طول ما يتشهدون ويقرأون نصف قراءتهم في وقوفهم ونصفها في ركوعهم ويقولون في تسليمهم بالبربرية: الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم يقولون: مقرر ياكش خمساً وعشرين مرة، وايحن ياكش مثلك، ومعناه الواح الله، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه لا أحد مثل الله وهم يجمعون يوم الخميس ضحاً، وليس عندهم آذان ولا إقامة، وتعرفون أوقات الصلاة بصياح الديوك ولذلك حرموها.

٣ — الزكاة: يأخذون العشر من جميع الحبوب دون غيرها.

٤ — الصوم: يكون في شهر رجب بدل رمضان، يصومون يوم الخميس ضحاً، ويوم الجمعة من كل أسبوع².

ب — الحياة الاجتماعية: وأهم ما أوردت المصادر في شأنها ما يأتي:

١ — يتزوج الرجل ما استطاع من النساء مع شرط القدرة على الإنفاق عليهن.

٢ — يمنع فقط من التزوج من بنات عمه أكثر من ثلاثة.

1- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، طبعة حجرية بفاس بدون تاريخ، ٧٠. السلاوي، الاستقصاء، ١/

2- البكري، المغرب، ١٣١؛ ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩. السلاوي، الاستقصاء، ١١٤/١

٣ — يطلق ويراجع بدون قيد أو شرط.

٤ — يقولون عند تناول الطعام والشراب: باسمك يا كساي، وتفسيره حسب زعمهم باسم الله¹

ج — الحدود

1 — السارق يقتل بالإقرار والبينة وحيث وجد وزعموا أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف². 2. الزاني يرحم. 3. ينفي الكاذب الذي يسمونه "المغير". 4. الدية في شريعتهم مائة من البقر. 5. رأس كل حيوان عليهم حرام. 6. الحوت لا يؤكل إلا بعد أن يذكي — يذبح. 6. البيض عندهم حرام، والدجاج مكروه ما عدا المضطر، والديوك حرام.

د — التبرك والكرامة: يبدو أن طلب البركة من هؤلاء المدعين للنبوة كان واجباً ومطلوباً، حيث كان نبيهم يصبق في أيديهم فيلعقونه تبركاً به ويحملون بصاقه إلى مرضاهم يستشفون به³، وعليه فالتمعن في هذه الشريعة يلاحظ بيسر الآتي:

أولاً- أنها لم تخرج عما جاءت به شريعة الإسلام في كل هذه المجالات.

ثانياً- أنها عبارة عن إعادة ترتيب وتحريف وذلك بالزيادة أو النقصان لتعاليم الشريعة الإسلامية، وفرائضه وأركانه.

ثالثاً- أنها مكيفة حسب تقاليدهم وطبائعهم لاسيما الجبلية.

٤- قاموا تجسيد بعض أخلاق الإسلام كالتشدد في معاقبة الزاني والكذاب، وهي الأخلاق التي تنسجم مع طبائع البدو والريفين، كما تنسجم مع عقائد الخوارج الذين يعدون الكذب من الكبائر، وكذلك دية القتل الباهضة — مائة من البقر — .

٥- كما أن تقديس أنبياءهم، والتبرك بهم يترجم تقاليد وثنية قديمة، وبقايا تقاليد دينية متوارثة، ويكشف عن سر تواصل هذا التقديس في تاريخ بلاد المغرب الذي تجلّى في

1- السلاوي، الاستقصاء، ١/ ١١٤ .

2- نفسه، ١/ ١١٥ .

3- البكري، المغرب، ١٣٥ — ١٤٠ .

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

أشكال مختلفة منها تقديس الولي الصالح، والمرابط، وبعض الشيوخ لاسيما في الظروف الصعبة التي يشيع فيها الفقر والجهل.

* مدعو غمارة: تواصلت الثورات بأشكال مختلفة، وقد استخدم السكان كل وسائل المقاومة العسكرية والعقدية والفكرية لذلك توالى ظهور مدعو النبوة لاسيما في المناطق النائية والجبلية، فقد ظهرت ديانة غمارة بمثل ما ظهرت به ديانة برغواطية في محكسة إحدى بطونها في نواحي تطوان، وغمارة قبيلة بربرية من مصامدة الشمال وذلك سنة ١٩٢٥/٢١٥¹ تقريبا، وكان هذا النسب كافيا لجعل لحاميم مكانة عالية في قومه.

وأول من أسس هذه الديانة هو: أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو ابن وجوفال بن وزروال الملقب بالمفتري²، واسم حاميم مأخوذ من القرآن الكريم حيث يوجد عدد من السور تفتح بذلك — حم — وكنيته أبو محمد، وأبوه يحمل أسماء عربية إسلامية هي: أبو خلف من الله، وكذلك جده وجد جده، حيث يدل على أنها أسرة بربرية عريقة في الإسلام رغم ما يقول عنها بعض المؤرخين من أهل السنة، ومن المعلوم أن أسماء الأشخاص لها أهمية بالغة في العقائد السحرية الدينية عند البدائيين لاسيما لدى البربر³.

وكان لحاميم من البنين محمد وبه كان يكنى — أبو محمد —، وعبد الله، وعيسى الذي كان قد أوفده إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن بن محمد قصد توطيد العلاقات بينهما في ظل تلك الصراعات الداخلية، وضغط الفاطميين المتواصل الذي عمل على احتوى بلاد المغرب كلها، ودخل بذلك في صراع مع بعض القبائل المناصرة من قبل للأمويين، ويمكن القول إن غمارة استفادت من الصراع الأموي الفاطمي على النفوذ في المنطقة الغربية فحققت بعض المكاسب على المستوى الداخلي بكسب سكان الجبال

1- البكري، المغرب، ١٠١.
2- نفسه، ١٠٠ عند ابن خلدون: حاميم بن من الله بن حريز بن عمر بن رجفو بن أزروال بن محكسة يكنى أبا محمد، — وأبو خلف — العبر، ٤٤/٦، ٤٥.
3- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٣.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

الأشداء وتشريع ديانة تليق بطبائعهم، وبساطتهم الفكرية من شأنها تخفيف ثقل تعاليم الشريعة الإسلامية لاسيما فيما يخص احترام النظام والخضوع للسلطة المركزية، وأداء فريضة الزكاة من جهة وإيجاد غطاء شرعي يدعم استقلالها من جهة أخرى وعلى المستوى الخارجي كسب دعم الأمويين بالأندلس لهم.

وقد ظهرت ديانة برغواطة في بداية القرن الرابع الهجري في ظروف ساد فيها الحكم الفاطمي بلاد المغرب، واختفاء الإمارات التي كانت قائمة، واشتداد الصراع الأموي الفاطمي على مناطق النفوذ، ولا ريب أن أفكار الخوارج الصفرية، والصراعات السياسية بين القبائل الجبلية البعيدة عن مراكز التمدن والتحضر التي تتميز بروح التمرد حيث شكلت عائقا أمام انتشار تعاليم الشريعة، والثقافة العربية الإسلامية في هذه المناطق، الشيء الذي أسهم في بقاء التقاليد القديمة قائمة بما فيها المعتقدات الوثنية، وبقايا الديانتين اليهودية والنصرانية، ومن هذه القبائل "عمارة" التي ظلت على خشونتها الجبلية غارقة في الجهالة والبعد عن الشرائع والانتباز عن مواطن الخير كما يقول ابن خلدون¹.

وهؤلاء الجبليون كانت سذاجتهم في الاعتقاد يضرب بها المثل في كل العصور²، كمل عرفت المنطقة بالسحر والسحرة، وهي التي ظلت تغذي بلاد المغرب بهذا النوع الذي مازال ذلك متواصلا حتى زماننا، وتأتي نبوة حاميم وغيره في سياق محاولة هؤلاء إبراز قدراتهم الفكرية، وقولية تعاليم الشريعة الإسلامية وفق طبيعتهم وتقاليدهم وتكوينهم النفسي، وهو ما يبين أنهم لم يرتدوا عن الإسلام إنما حاولوا تكييف تعاليمه لكي يتمكنوا من المشاركة في البناء الحضاري ببلادهم، والحقيقة أن المصادر السننية التي أوردت أخبارهم انتقت ما يسفه هؤلاء، ويظل دعوتهم، ويصرف الناس عنهم، والمعالجة هذه جرّت على بلاد المغرب وشعوبها الولايات ومازالت لأن عدم فهم الآخر والاعتراف له بجهوده، وأنه شريك أساسي في عملية التطور والتطوير، يضعف من التماسك

1- العبر، ٤٤/٦ .

2- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٠ .

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

الاجتماعي، يخلق الهزات العنيفة التي تتبعها ارتدادات، وبالتالي يكون عاملا سلبيا في ترسيخ ذهنية عدم الثقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الأمة وعلمائها، وبين ما هو نظري، وما هو عملي، ويتيح للأجنبي التدخل في شؤونه، أو الاستعانة به، لإعادة قراءة تاريخنا بتجرد ودون انفعال هو وحده الكفيل بحل هذه المعضلات، أقول هذا قبل التعرض إلى بعض تفاصيل ديانة أغمارة فيما يأتي.

ظهرت نبوة حاميم أو ديانة غمارة في جبل حاميم¹ قرب تيطاوين سنة ٩٢٥/٣١٣، واجتمع إليه كثير من أفراد قبيلته، واقرؤا بنوبته، وشرع لهم شريعة مثل شريعة صالح المؤمنين نبي برغواطة وقد ألف حاميم قرآنا باللسان البربري، ومما أورده البكري مترجما إلى اللغة العربية بعد التهليل الذي يشبه افتتاح السور القرآنية بإسم الله الرحمن الرحيم: " حلني من الذنوب يا من يحل البصر ينظر في الدنيا، حلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر— ومنه أيضا: أمنت بحاميم وبأبي خلف، وأمن رأسي وعقلي وما أكنه صدري وما أحاد به دمي ولحمي، وأمنت بتا نقيت² (عمة حاميم).

ولا يعدو أن يكون هذا القرآن، إلا دعاء مستنبط من القرآن نفسه، ومن أدعية الرسول ﷺ حيث لم يأت بجديد إلا جملة: "أمنت بحاميم وبأبي خلف" وغيره محاكاة للقرآن، وهو ما خدم القرآن فسهل انتشار أساليبه، وتعاليم الشريعة الإسلامية بين هؤلاء السكان الذين هم بعيدين عن التحضر.

وفي هذا السياق جاءت تشريعات أو ديانة غمارة كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتها حيث تنسب أحيانا إليها، وأحيانا أخرى إلى المتنيء حاميم، ويظهر أن حاميم أول من وضع تشريعاتها، وأضاف إليها من جاء بعده يبدو ذلك فيما يأتي:

العبادات: لم تمدنا المصادر بتفاصيل عن هذه التشريعات ماعدا الإشارات التي

1- ربما سمي باسمه فيما بعد أو حمل من قبل اسم العائلة أو العشيرة.

2- البكري، المغرب، ١٠٠؛ ابن خلدون، العبر، ٤٤/٦، ابن أبي الزرع، الروض القرطاس، ٩٩.

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

أوردتها البكري وتعلق بأربعة أركان هي نفسها أركان الإسلام، وفيما يتعلق بالتحريم والتحليل وهي:

الصلاة: ففيما يخص الصلاة فقد أسقطت هذه الديانة الوضوء، ولم يبق من الصلاة المفروضة إلا أثنان صلاة عند طلوع الشمس، وأخرى عند غروبها، وصار السجود يتم على بطون أكفهم¹.

الزكاة: أما الزكاة فالأخبار عنها غامضة جداً، وما سمحت به المصادر هو فرض العشر على كل شيء دون تحديد العشر إن كان من الدخل أو من رأس المال، وهل توجد حدود لإخراج هذا العشر مثل ما هو محدد في الفقه الإسلامي²

الصوم: شرع صوم يوم الخميس كله، وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر فمن أكل فيهما فيهما غرم خمسة أثوار تقدم للمتنيء حاميم³.

الحج: أما الحج فقد قضى تشريع هذه الديانة إسقاطه ولم يعوضه بفرض آخر⁴
المعاملات: أحلت هذه الديانة أكل لحم الخنزير، وقد أدعت أن القرآن الكريم لم يحرم إلا ذكورها أخذنا بظاهر الصيغة القرآنية⁵.

ويورد صاحب روض القرطاس أخباراً مخالفة لما أوردته المصادر قبله خاصة البكري لكن لا يذكر من أين استقاهها، ويقول أن حاميم: فرض عليهم صوم الاثنين، وصوم الخميس إلى الظهر وصوم الجمعة، وصوم عشرة أيام من رمضان، ويومين من شوال، ومن افطر في يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوار، ومن افطر يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين⁶، لكن المتمعن يتبين أن هذا التشريع ما هو إلا تكليف لتعاليم

1- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩.

2- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٥.

3- البكري، ١٠٠؛ ابن خلدون، العبر، ٤٥/٦.

4- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٨.

5- يبدو أنه تأويل للآية القرآنية الكريمة التي ورد فيها تحريم أكل لحم الخنزير وهي: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" البقرة، ١٧٢.

6- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩.

الشريعة، وإعادة ترتيب للصلوات ولأيام رمضان، والأيام المفروض صيامها. وليست ابتكارا وقد ظلت هذه الديانة قائمة حتى القرن الثامن الهجري¹

ويجب أن التوقف عند مسألتين هامتين هما ديانة صالح بن طريف السابقة الذكر، والسحر. فالمسألة الأولى تخص أوجه الشبه بين ديانتَي غمارة وبرغواطة في كثير من تعاليم شريعتهما، ولا ريب أن ديانة برغواطة التي تواصلت حتى عهد نبوة حاميم قد أثرت في ديانة غمارة كما أن رجالها الأولون كانوا ضمن جيش غمارة سنة ٩٦١/٣٥٠²، حيث اطلعوا على تعاليم دينتها، واستفادوا من أساليبها في الحرب، وقد كانت بعض تعاليم شريعة غمارة هي نفسها تعاليم شريعة برغواطة، وهو ما يدل على تواصل رد الفعل في لونه الفكري والعقدي من طرف البربر، ومحاولة من المحافظين وذوي المصالح في الإبقاء على سلطتهم في نطاق القبيلة، وهو الأمر الذي ظل يحرك التاريخ ويوجهه في بلاد المغرب.

أما المسألة الأخرى المتعلقة بالسحر فيجب النظر إليها في سياق التحول العقائدي والفكري والثقافي والاجتماعي لسكان بلاد المغرب، فقد ذكر البكري أن لحاميم عممة تسمى تاتفيت كانت كاهنة ساحرة، كما كانت له أخت تدعى دخو كانت هي الأخرى ساحرة وكاهنة تتكهن لهم قبل بداية كل حرب أو إذا حل بهم ضيق³، ولا بد هنا من الرجوع إلى الوراة قليلا وبالضبط إلى الكاهنة التي قاومت الفتح العربي الإسلامي انطلاقا من الأوراس، ويدل هذا على تواصل هذا التقليد أو الاعتقاد ببلاد المغرب حتى عصرنا فتلحظ في ربوع بلاد المغرب العرافات (القزانات)، فهل هذا تواصل للطابع البدائي للنظام الاجتماعي الذي تغلب عليه "الأموسية — نسبة إلى الأم —" ؟ ولا ريب أن الطبيعة تسهم في تكوين ذلك، وهو ما تؤكد إشارة ابن خلدون حول متحلي السحر من النساء العواتق اللواتي كانت لهن قدرة على استحلاب روحانية ما يشاؤنه من

1- البكري، المغرب، ٢٠١، ابن خلدون، العبر، ٦/ ٤٥، ٤٧.

2- ابن خلدون، العبر، ٦/ ٢٧٧.

3- البكري، المغرب، ١٠٠؛ ابن خلدون، العبر، ٦/ ٤٥.

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكيفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكوان. عما شاعوا¹، ويبدو أن الاشتغال بالسحر والكهانة لم يكن قاصرا على النساء فحسب بل شاركهم الرجال، ومن أمثلة هذا السحر أن المخالف منهم للمتنبيء ولشريعته يصاب بعاهة لحينه²، وطبيعي أن تشهد مرحلة التحول مثل هذا اللون من التفكير والمظاهر الاجتماعية لا سيما في ظروف يصعب فيها نحو التقاليد والمعتقدات التي ترسخت عبر آلاف السنين وأصبحت تشكل تراث الأمة وذاكرتها، ومن ثم فإن تواصلها كان طبيعيا، والملاحظ أن الديانتين اليهودية والنصرانية لم تستطعا إضعافها أو تكيفها بل تكيفا هما معها، والشريعة الإسلامية هي التي كان لها أثر إيجابي في هذا المجال حيث استطاعت بفطرتها التغلغل في أوساط سكان هذه المناطق وتحدث الهزة النفسية ثم التغيير لأن تعاليمها كانت تمثل البديل الأمثل لهذه التقاليد والمعتقدات فعلى سبيل المثال حلت محل السحر ومن ثم القضاء عليه لأنها أتته من الباب الواسع والحقيقي وهو محاربة الجهل بإشاعة التعليم الذي يعتبر فرضا بين سكان هذه القبائل الجبيلية البدوية المتحركة. وبعد مقتل حاميم بقيت غمارة على ديانته، وكان يظهر فيها من حين لآخر متنبئ منهم عاصم بن جميل اليزدجومي.

كما تنبأ أحدهم بنواحي تلمسان في القرن الثالث الهجري أي حوالي ٨٣١/٢٢٧، ويقول صاحب روض القرطاس³، أنه تأول القرآن على غير وجهه، فاتبعه خلق كثير من الغوغاء، وتجب الملاحظة حسب هذا المصدر أنه لم يأت بقرآن جديد مثل صالح وحاميم، ولكنه قام بتفسير القرآن الكريم متأولا مقتديا في ذلك بالشيعية لاسيما فرقة الإسماعيلية ١

1- العبر، ٤٦/٦ .

2- البكري، المغرب، ١٢٠١ = فمما أورده البكري في هذا الشأن: "ومن أعاجيب بلاد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالردة وهم في وادي لوعند بني سعيد وعند بني قطيطان وعند بني يروتن يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى، ولو قطع قطعاً فإذا بعد ثلاثة من غشيته، استيقظ كالسكران، ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيء فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جذب أو حرب أو غير ذلك وهذا أمر مستفيض لا يخفى".

3- ص، ٩٨ .

مدعو النبوة ————— أ. إسماعيل سامعي

التي كانت تعاليمها قد انتشرت في نهاية هذا القرن ببلاد المغرب خاصة ببلاد كتامة وإفريقية. فهل كان هذا المتنبئ متأثراً بدعوة الإسماعيلية أم بديانة برغواطة وغمارة حيث أن منطقة تلمسان واقعة بينهما ؟

ومن شرائع هذا المتنبئ أنه كان ينهي عن قص الشعر وتقليم الأظفار، وتنف الإبطين، والاستنجاء، وأخذ الزينة، ويبدو أنه لم يأت بشيء جديد، وأنه كان من أنصار الطبيعة حيث يرى أن لا تغيير لخلق الله، وأنه كان كغيره موحداً مؤمناً¹، واعتقد أن هذه التعاليم البسيطة هي من وضع الكتاب قصد تليق قم هؤلاء الذين قد يكونون من الثائرين العلماء المفكرين المعارضين .

وتحبرنا المصادر خلال القرن الرابع الهجري عن متنبئين آخرين منهم متنبئ كتامة على عهد المهدي الفاطمي إذ تذكر أنه لما أبعد المهدي رجال كتامة ومعهم الداعية أبا عبد الله عن المشاركة الفعلية في تسيير الحكم القائم لجأ عدد من هؤلاء إلى مناطقهم بكتامة، وأعلنوا خروجهم عن طاعة المهدي الفاطمي وبايعوا واحداً منهم وزعموا أنه المهدي المنتظر وكتبوا كتاباً فيه شريعتهم وادعوا أنها نزلت عليهم وجاء بها مهديهم²، وهو المدعو الماوطي أو المارطي كادو بن معارك وفي بني ماوطنت من أورسة، وقد نصبوا له دعاء على مثال تنظيم الدعوة الإسماعيلية، وجعلوا من مقامه قبلة يتوجهون إليها في صلاتهم، وهنا أيضاً تظهر أصابع الفاطميين وأهل السنة في كيل التهم لهذا المتنبئ أو الثائر.

وفي هذا السياق ظهر متنبئون آخرون منهم متنبئ أدعى النبوة بجبال الأوراس، وتسمى بالناصر لدين الله قال عنه إدريس عماد الدين القرشي³: "أتى بمخرقة كثيرة وألوان عجيبة استمال بها العامة".

1- الفرد، بل، ١٨٨ .

2- النعمان، افتتاح الدعوة، ٣٢٤، ابن عذاري، البيان، ١/١٦٦ .

3- إدريس عماد الدين القرشي، عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، تحقيق مصطفى غالب، (بيروت، د. ت) دار الأندلس، ٢٠٧/٥ .

مدعو النبوة _____ أ. إسماعيل سامعي

والنتيجة التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة تكمن أساسا في أن أشهر المتنبئين هم ثلاثة صالح، و.حاميم¹، وعاصم، الذين لم ينجحوا في تحريف عقيدة الإسلام وشريعته بل أسهموا في فتح قلوب الناس لها لاسيما الجليليون.

وبلورت هذه الحركات قدرة سكان المغرب على التكيف الاجتماعي، والمشاركة الإيجابية في العطاء الحضاري، وبينت أن تحامل الخصوم على هذه الحركة وتشويه حقيقتها وأبعادها مثل ما عملت على تشويه الحركات الثورية الأخرى لم تستطع طمس كل معالمها ومنعها من الإفلات والوصول إلينا من خلال عدد من المصادر.

وقد حاول الاستعمار الفرنسي في العصور الحديثة تحريك هذه الحركات على المستويين

١ - المستوى الفكري: حيث خصص لها الكتاب والمؤرخون الفرنسيون ومن سار في ركايم حيزا كبيرا في مؤلفاتهم منهم الفرد بل في مؤلفه " الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم " محاولين بذلك التأسيس لها إحياء لتقاليد وثنية مخلوطة ببعض التعاليم اليهودية والنصرانية.

٢ - المستوى العملي: وذلك بتطبيق بعض التقاليد في مجال اللغة حيث جمعوا كلماتها وهجاءها وكتبوا بها وأدخلوها مجالي الإعلام القضاء .

والحقيقة أن الاستعمار عندما وظف دعوة هؤلاء المتنبئين أو حركات المعارضة التي كانت جد طبيعية تدل على حركية المجتمع في ظل الشريعة والحضارة الإسلامية لتخدم أغراضه في الهيمنة الثقافية والاستغلال الاقتصادي في وجوده أو بعده وبخلقه فنن وبور توتر وأذئاب له باسم الهوية يدافعون عن مصالحه.

1- المقري، الحمان في مختصر أخبار الزمان وأخبار الخلفاء الراشدين والأمراء والسلطين، مخ رقم، ٨٤٠٧ دار الكتب بتونس، و٩٨٠.